

الحريم الصفوي: إضاءات جديدة

Looking at the Safavid Harem in a new light

يُعدّ موضوع الحريم محورًا رئيسًا في جملة أعمال المستشرقين والرحالة الأوروبيين، نسجوا حوله خيالات تجاوزوا بها الواقع وأسقطوا عليه تمثيلاتهم الثقافية، فتارة صوّروا المرأة الشرقية مقموعة ومُقيّدة، وتارة أخرى انتقدوا دورها بصفتها فاعلاً سياسيًا، وجعلوها أحد العوامل الرئيسية في انهيار الإمبراطوريات الإسلامية، وفي هذا السياق حظيت بلاد فارس بفيض من تلك الرحلات. تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على حضور المرأة الصفوية في المشهد السياسي، والمكانة التي حظيت بها في البلاط الصفوي بين الواقع والخيال، وتدعو إلى قراءة النصوص التاريخية بمعطيات معاصرة، وتجاوز الصورة النمطية بشأن حكم الحريم، ومحاولة رؤية الدور الذي قامت به المرأة أيضًا في الحفاظ على بنى الدولة وتيسير الانتقال من حاكم إلى آخر بسلاسة، عبر عرض نماذج نسائية مارست المرأة فيها تأثيرًا سياسيًا جوهريًا في البلاط الصفوي. وقد لا تنطبق هذه الرؤية على النماذج كلها، بيد أنها تنسف الفكرة الشائعة بشأن عدم أهلية المرأة لخوض غمار الحكم. كما تعرض الدراسة مسيرة المرأة ووضعها في ظل القيود المفروضة عليها ودورها في ازدهار الحضارة الصفوية.

كلمات مفتاحية: الرحالة الأوروبيون، الحريم، الدولة الصفوية، الدور الحضاري.

The topic of the harem was central to the work of orientalists and European travellers. They created fantasies about the harem that transcended reality and largely influenced by their own cultures. At times, they portrayed the oriental woman as oppressed and restrained while others criticized her role as a political actor and identified it one of the key elements leading to the collapse of the Islamic Empires. This article seeks to shed light on the presence of Safavid women in the political scene and the status they received in the Safavid courts. This paper calls for reading historical texts with contemporary data, overcoming the stereotype of harem role, and trying to understand the role they played in preserving state structures, to facilitate transitions from one ruler to another. This will be done by reviewing the roles of women who had exerted substantial political influence in the Safavid courts, while this may not apply to all women, it emphasizes the common idea about women's ineligibility to govern. This paper also reviews the progress of women and their status under the constraints imposed on them and their social role in the flourishing of the Safavid civilization.

Keywords: European Travelers, Harem, Safavid State, Civilization.

* باحثة في التاريخ الإيراني.

Researcher in Iranian History.

مقدمة

اتَّجه الفكر الأوروبي في أواخر القرن السابع عشر نحو دراسة الثقافة الشرقية بما تحويه، وتجلَّى هذا الاهتمام من خلال رحلات الأوروبيين إلى الشرق عمومًا، بما فيه البلاد الإسلامية. وقد حظيت بلاد فارس ومناطقها بعدد وافر من زيارات هؤلاء الرحّالة الذين اتَّسموا بسعة اهتمامهم ورغبتهم في استكشاف المجتمع الفارسي، وكان موضوع الحريم من الركائز الأولى لكتاباتهم، وغدَّتْها هالة الغموض التي كانت تُحيط بالحريم في الثقافة الشرقية⁽¹⁾، وقد كان انجذاب هؤلاء الرحّالة نزوعًا طبيعيًا وليد الفضول الغربي نحو كل ما يخص الشرق. وفي سياق الحضارة الإسلامية، كثيرًا ما فُهِمَت المرأة الشرقية على نحو خاطئ؛ إذ هناك من نسجوا أوهامًا وخيالات عنها تجاوزوا بها الحدود كلها، فقدّموا صورة تتمحور حول الحريم باعتباره مكانًا منعزلًا، وبشأن النشاطات التي تمارسها المرأة، وأظهروا فيها المرأة مضطهدةً ومُقيّدةً بأغلال الرّجل، تسعى لإرضاء شهواته البهيمية، وحالها يُرثى لها، ولم يُنظر إلى نساء الحريم بصفتهن ذوات عقول مستقلة⁽²⁾.

وعلى الرغم من ظهور نماذج نسائية تميزت بالذكاء والثقافة العالية والقدرة على إدارة شؤون الدولة بحزم وتشكيل السياسات الحاكمة، فإن الفكرة الغربية المتجذّرة في عقول الرحّالة أنكرت هذا الظهور، وسارعت إلى انتقاد الدور السياسي لنساء الحريم الملكي في التاريخ الصفوي، بل أَرهق المستشرقون كاهلها بفشل التجربة، فكانت تداعياتها إضعاف الدولة وانهيارها وإغراق البلاد في بحر الفساد، من دون محاولة التعمّق في طبيعة تلك الممارسات ومبرراتها في المجال السياسي. قد تكون تلك الأفكار جاءت لتخدم الفكر الأيديولوجي والصراع الثقافي السائد بين الشرق والغرب في تلك الفترة؛ فمثلًا وصف جون فريير John Fryer (1650-1733)، باستخفاف، النساء الصفويات باعتبارهن يفتقرن إلى العقول المستقلة، وأنهن لم يُرَبَّين إلّا على "أمر الفراش [...] والرفاهية، والخضوع البهيمي"، ولم يُسمح لهن بالتدخل في "شؤون الدولة"⁽³⁾. وهي نظرة إثنومركزية تحاول تأكيد الصورة النمطية المترسّخة في الأذهان، في حين كان من قواعد البلاط الصفوي تعيين معلّم لكل أميرة، يُلقَّب "دادا"، مهمّته تعليمها وإعدادها لأداء دورها في خدمة الإمبراطورية⁽⁴⁾. في حين روى كمبفر Engelbert Kaempfer (1651-1716) وسانسون Mr. Sanson (1663-1743) كيف تلت نساء الحريم بعض العلوم، وأهمها الأدب والرياضيات والتاريخ، فضلًا عن الشعر وفن الخط والرماية⁽⁵⁾.

وقد ذكر جان باتيست تاورنيه Jean-Baptiste Tavernier (1605-1689) "أنه ما إن تُلحظ نساء الحريم بلوغ الشاه سنًا يشغل فيه بأمور المملكة ويسعى لممارسة سلطته في حكم البلاد [...] حتى يشرعن في تدبير المؤامرات للتخلّص منه، حتى يصعد إلى العرش شاهٌ آخر يافع لا يهتم إلّا باللهو معهن"⁽⁶⁾. وهذا التصور خاطئ ويتعارض مع التقاليد الصفوية التي تقضي بعزل نساء الشاه

1 الحريم: مصطلح متعدد الدلالات، يشير في آن واحد إلى الفضاء المخصص لإقامة النساء في القصر، ويُسمى عند الفرس "حمرسرا" وعند الأتراك "الحرمك"، ويشير كذلك إلى النساء القاطنات فيه.

2 رونالد فريير، "المرأة في إيران الصفوية: شهادة الرحّالة الأوروبيين" في: غافن هامبلي (محرر)، *المرأة في العصور الوسطى الإسلامية*، ترجمة أحلام عثمان [وآخرون] (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2014)، ص 453-455.

3 John Fryer, *A New Account of East India and Persia Nine Years' Travels, 1672-1681*, William Crook (ed.), vol. 3 (London: Hakluyt Society, 1915), p. 127.

4 Somayyeh Mottaghi, "The Historical Relationship between Women's Education and Women's Activism in Iran," *Asian Women*, vol. 31, no. 1 (2015), pp. 7-8, accessed on 3/3/2018, at: <https://goo.gl/SviUCE>

5 انكلبرت كمبفر، *سفرنامه كمبفر (رحلات كمبفر)*، ترجمة كيكووس جهانداری، ط 3 (طهران: شركة سهامی انتشارات خوارزمی، 1363ش)، ص 226؛ مارتن سانسون، *سفرنامه سانسون (رحلات سانسون)*، ترجمة نقي تفضلي (طهران: كتابفروشي ابن سینا، 1346ش)، ص 119.

6 ژان باتيست تاورنيه، *سفرنامه تاورنيه (رحلات تافرنيه)*، ترجمة حميد شيراني (د. م.]: انتشارات نیلوفر، 1383ش)، ص 210.

في قسم بعيد حال وفاته⁽⁷⁾، وبنافي تعاليم الدين الإسلامي بشأن علاقات المحارم، باعتبار أن الوريث الجديد، عادة، هو ابن الشاه، فيُحرم عليه اللهو مع نساء أبيه. وبناء عليه، لن تستفيد نساء الشاه من التآمر عليه والتخلص منه.

اعتبر فلاديمير مينورسكي Vladimir Minorsky (1877-1966) أن "حكومة الظل المتمثلة في الحرير والملكة الأم، ساهمت على نحو كبير في تمزق الأسرة الصفوية"⁽⁸⁾. كما أن هيمنة الملكة الأم في عهد أحد الشاهات الضعاف وتدخلها في إدارة شؤون الدولة لا يعنيان بالضرورة هذا التعميم الكاسح، فهناك نماذج ساهمت أيضًا في تقوية أو اصر الأسرة الصفوية، مثل السيدة تاجلو بيكم والدة الشاه طهماسب.

لكن، ظهرت في الآونة الأخيرة كتابات برؤى جديدة تسعى لإلقاء الضوء على أدوار النساء في تلك المجتمعات، وكيف تعاملن مع المواقف والصعوبات والموقع المحوري الذي تبوّأته في مختلف مجالات الحياة، وكيف انبثقت من خلف ستار الحرير ليتحوّلن إلى فاعلات أساسيات في تاريخ أممهن⁽⁹⁾. بيد أن هذه الجهود المبذولة لا تزال بعيدة عن تقديم مساهمات جادة في هذا الصدد؛ إذ يعترى دراسة تاريخ النساء في فارس كثيرًا من الصعوبات وشح في المصادر، ولم تول المصادر الأساسية المكتوبة بالفارسية من مؤرخين رجال قدرًا كبيرًا من الاهتمام بالمرأة والدور السياسي والاجتماعي الذي قامت به على غرار الرجل. وقد يرجع ذلك إلى الأطر الأبوية والقيود الاجتماعية التي فرضت على المرأة وعلى الحرير باعتباره مكانًا؛ إذ يُعتبر منطقة محظورة ينبغي عدم الاقتراب منها احترامًا لخصوصيته ومراعاةً لشرف صاحبه.

من هنا، كان التوجّه إلى كتابات الرحالة الأوروبيين عن عالم الشرق الفاتن والغامض في آن، التي كانت بمنزلة وسيط عملي، تجلّى في جملة أعمالهم ومشاهداتهم التي رصدت ملامح الحضارة والثقافة الفكري، وعكست الخصوصيات الاجتماعية في بلاد فارس⁽¹⁰⁾. ومن هذه الكتابات، أعمال السفير الإسباني دن غارسيا فيغوئرو D. Garcia Vigueroo الذي زار فارس في عام 1614 وعاش فيها أكثر من ثمانية أعوام، عاصر فيها فترة حكم الشاه عباس الكبير (1588-1629)؛ والرحالة الإيطالي بيوترو دلا واله Pietro Della Valle الذي زار فارس في عام 1618؛ والمستشار الألماني آدم أولياربوس Adam Olearius الذي رافق البعثة الدبلوماسية الألمانية إلى فارس في عام 1635، خلال فترة حكم الشاه صفي الدين (1629-1642)؛ والقس المسيحي سانسون الذي زار فارس في عام 1683، خلال حكم الشاه سليمان الصفوي (1666-1694)، وعاش فيها أعوامًا عدة، يدعو فيها إلى الدين المسيحي، وغيرهم من الذين عاصروا الدولة الصفوية وعاشوا في ظل حكومتها ودوّنوا مشاهداتهم عنها.

دوّن الرحالة والمستشرقون ما أرادوا أن يراه الأوروبيون ويقرؤوه، وحشوا كتاباتهم بركام من الأحكام على سلطة النساء في المجتمعات الشرقية، مبنية على الحكايات والأساطير وخلفيات ثقافية مغايرة. وأصبح المؤرخون الشرقيون يبحثون في تلك النصوص

7 ذكر شاردين Chardin أنه في حالة وفاة الشاه، تُسمع أصوات بكاء النساء وعويلهن في الحرير، ليس حزنًا على الشاه فحسب، بل تأسّفًا على مصيرهن المحتوم، فمن التقاليد الصفوية أن يتم عزل نساء الشاه المتوفى مع أبنائهن في قسم بعيد، ولا يُسمح لهن بممارسة النشاطات التي كن يمارسها من قبل. ينظر: شاردين شيفالير، **سياحته شاردين سازمان نظامي وسياسي ومدني إيران (رحلات شاردين المجتمع المدني والسياسي في إيران)**، ترجمة محمد عباسي، ج 8 (طهران: مؤسسة چاپ وانتشارات أمير كبير، 1966)، ص 369-392.

8 *Tadhkirat Al-Muluk: A Manual of Safavid Administration*, Vladimir Minorsky (translated and explained), EJW Gibb Memorial Series 16 (London: Luzac and CO., 1943), p. 23.

9 مثل كتابات نايبا أبوت Nabia Abbot، وأن ك. لامبتون Ann K.S. Lambton، والمرأة في العصور الوسطى الإسلامية لغافن هامبلي Gavin Hambly، وإمبراطورية الحرير لليسلي بيريس Leslie Pierce.

10 بهاء بن نوار، "الرحلات الاستشرافية وصورة الذات العربية: قراءة في صورة الحرير"، مجلة رؤى فكرية، العدد 2 (2015)، ص 30، شوهدي في 2018/7/11، في: <https://bit.ly/39ddQYP>

التاريخية عما يريدون أن يروه هم بحسب ما يفرضه عليهم واقعهم الذي قد لا يعكس الحقيقة في إطارها التاريخي، وصار من عاداتهم الاعتماد على تلك الأحكام التي رسخت في عقولهم، وبات التحرر منها أمراً عصياً ومشكوكاً فيه. لذا، ينبغي تقويم تلك الكتابات بأنارة، والحذر عند الأخذ منها، مع إعمال العقل في تتبع معطياتها وتفحصها، واضعين نصب أعيننا حدود فهم أولئك الرحالة الناتج من عدم قدرتهم على الاتصال مباشرة بالنساء في تلك الفترة⁽¹¹⁾. وبناء عليه، يتطلب الأمر تجاوز المقاربات الشكلية والغوص في الأعماق وفهمها على نحو أفضل، وتقصي بعض الحالات، مثل تلك التي نحللها في هذه الدراسة حتى نتجنب المساهمة في الانتقاص من مكانة النساء وإنجازاتهم وما قدمنه لمجتمعاتهن.

وفي هذا السياق البحثي، تسعى هذه الدراسة للكشف عن جوانب من تاريخ المرأة في فارس، وعلى وجه الدقة في تاريخ الدولة الصفوية، نتأمل من خلالها دور النساء في إطار ديناميات البلاط الإمبراطوري وتفاعلاته، واشتراكهن في صوغ سياسة الدولة وتخطيطها، وانعكاسات ذلك على البلاط الصفوي والمجتمع، ونحاول إعادة النظر في الأفكار التي تفشت مروجة لعدم أهلية المرأة لخوض غمار الحكم، ووجهة النظر التقليدية القائلة إن تدخل النساء وحكم الحريم هو أحد العوامل الرئيسة في انهيار الإمبراطوريات الإسلامية وتقهرها بصورة عامة، والصفوية على نحو خاص، وسيرها نحو الأفول والتفسيخ⁽¹²⁾.

تسعى هذه الدراسة أيضاً لتجاوز الآراء الكلاسيكية التي تداولتها الدراسات السابقة ردحاً من الزمن؛ وتصوغ ضمن هذا المعنى سؤالها الرئيس: ماذا لو كان حكم الحريم قد أدى أيضاً أدواراً رئيسة في الحفاظ على بنى الدولة وتيسير الانتقال من حاكم إلى حاكم بنوع من السلاسة، حتى لو انتهى الأمر بالصراع مع الحاكم الجديد بعد استتباب الأمر له؟ قد لا ينطبق هذا الوضع على كل الحالات، لكن وجوده ينسف الفكرة الشائعة، ويدعو إلى المزيد من البحث في الاتجاه نفسه.

وعلى هذا المنوال، نطرح أسئلة فرعية عدة، لعل أبرزها: كيف تطور مفهوم الحريم في الإمبراطورية الصفوية؟ وأين يكمن مفهوم الحريم بين الواقع والخيال والتصورات التي دارت في خلجات كتاب الغرب؟ وكيف كانت مسيرة المرأة في ظل الحكم الصفوي؟ وما نوعية القيود التي فرضت على النساء مع الانتقال من الطريقة إلى الدولة؟ وأكانت المرأة مهانة كما صورها المستشرقون، أم هي نظرة إنثومركزية متأصلة نحو كل ما يخص حياة الشرقيين؟ وما أهم المنعطفات التاريخية وأبرز الشخصيات النسائية التي لمعت في تاريخ السلالة الصفوية؟ وكيف ساهمن في إثراء الإطار الحضاري لمجتمعاتهن؟ وهل تُعيننا المعطيات القليلة المتوافرة في البحث والتعمق في قراءة الوقائع ودراسة تاريخ المرأة في ظل تهميش المؤرخين لها؟

لم يعارض المجتمع المسلم تأثير المرأة في سدة الحكم، ولو رمزياً؛ فمنذ العصر العباسي الأول ظهرت نماذج نسائية ملكت السلطة والنفوذ من وراء الستار، مثل الخيزران، جارية المهدي المفضلة؛ وأم هارون الرشيد، خامس الخلفاء العباسيين، التي حاصرت بوادر الاضطرابات في البلاد وحافظت على العرش لأبنائها⁽¹³⁾؛ وأروى الصليحية (1091-1138) التي حكمت اليمن قرابة نصف قرن

11 كاترين بابايان، "عقائد النساء: نظرة على النساء الصفويات في الثقافة الأصفهانية المحلية" في: هامبلي (محرر)، ص 417-419؛ ينظر أيضاً:

Andre Newman, *Safavid Iran Rebirth of Persian Empire* (New York: I.B. Tauris & Co Ltd., 2012), p. 20.

12 بلاد فارس هو الاسم التاريخي الذي كان يطلق على عموم الأراضي الإيرانية، التي تحولت إلى إيران في عام 1925 مع صعود الأسرة البهلوية. سيتم استخدام كلمة فارس للمحافظة على السياق التاريخي.

13 سوافل حسن، *دور الجوّاري والقهرمانات في دار الخلافة العباسية، 132-656هـ/749-1258م* (دمشق: صفحات للدراسات والنشر، 2013)، ص 77-80.

نيابة عن خلفاء الدولة الفاطمية الشيعية⁽¹⁴⁾؛ وضيعة خاتون الأيوبية السنية (1236-1242) الملقبة بـ "الستر العالي" ملكة حلب التي تمتعت بعلامات الملك في فترة حرجة من تاريخ الدولة الإسلامية⁽¹⁵⁾؛ وتركان خاتون التي حكمت كرمان في الجنوب الغربي من فارس وحظيت بتأييد من الإليخان هولوكو، وخرجت من عباؤها الملكة أيبش خاتون (1263-1287) التي حكمت المملكة الفارسية على امتداد نصف قرن⁽¹⁶⁾. وفي الدولة العثمانية، ظهرت نماذج حيوية مثل السلطانة خُرم أو ركسلانة (1520-1558) زوجة السلطان سليمان القانوني (1494-1566) التي كانت لها مساهمات إيجابية في الحياة السياسية وتبادلت الخطابات مع الملوك⁽¹⁷⁾.

كثيراً ما حظيت نساء البلاط في المجتمعات المسلمة بفرصة للتأثير في الشؤون العامة، وأظهرن تفوقاً بصفتهن فاعلات سياسيات حكمن ممالك ازدهرت في المجالات كلها وعاشت عصوراً ذهبية. وفي واقع الأمر، عند تركيز عدسة التاريخ المجهريّة على أحداث فردية دقيقة، نجد حالات ونماذج لنساء كنّ صادقات مع أنفسهن حين أدركن عدم قدرتهن على إدارة شؤون الدولة، واتخذن قراراً بالتخلي عن الإدارة والسماح لمن له القدرة على إدارة شؤون البلاد، وخير مثال على ذلك دولت خاتون، الحاكمة الرابعة عشرة من سلالة بني خورشيد التي حكمت مقاطعة لورستان في الجنوب الغربي لبلاد فارس وتنازلت عن العرش لأخيها في عام 1316⁽¹⁸⁾؛ والسلطانة خديجة طورخان (1656) في الإمبراطورية العثمانية التي بحثت عن مستشار من خارج القصر يتمكن من إدارة أمور البلاد، فوقع اختيارها على محمد باشا كوبرلو (1656-1661) ليبدأ عصر حكومة آل كوبرلو، وانسحبت بهدوء، على الرغم مما تمتعت به من ذكاء، لتتفرغ لأعمال الخير⁽¹⁹⁾.

يدعونا ظهور تلك النماذج في التاريخ الإسلامي (المبكر والوسيط)، من دون اعتراض المجتمع على حكمهن، إلى التأمل في أدوارهن والتساؤل: هل حكم المرأة مساحةً صغيرةً مقبولاً من المجتمع، بينما امتداد نفوذها لحكم إمبراطورية مرفوض؟ أم هل أن نظرة المجتمع إلى حكم النساء بدأت تتغير مع ازدياد رحلات المستشرقين وانتشار رؤية متباينة ترى حكم النساء إحدى العلل الرئيسة لانحيار الدول؟ حتى إن المؤرخين المسلمين ما برحوا يُردّدون تلك الرؤية من دون تفحص، وأقدم المؤرخ التركي أحمد رفيق على نعت تدخل النساء في الحكم بـ "سلطنة الحرّيم"⁽²⁰⁾. ودُكرت هذه المسألة في المصادر العثمانية، وخصوصاً رسائل النصيحة، مثل رسالة حاجي خليفة ولطفي باشا وقوجي بك... إلخ.

14 فاطمة المريني، *السلطانات المنسيات: نساء رئيسات دولة في الإسلام*، ترجمة جميل معلّى وعبد الهادي عباس (دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، [د.ت.])، ص 189-195.

15 جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، *مُفَرِّجُ الْكُرُوبِ فِي أَخْبَارِ بَنِي أَيُّوب*، تحقيق جمال الدين الشّيْثَالِ وحسنين ربيع، مراجعة سعيد عاشور، ج 5 (القاهرة: مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية، 1957)، ص 268؛ كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ابن العديم، *زبدة الحلب من تاريخ حلب*، غني بنشره وتحقيقه ووضع فهرسه سامي الدهان، ج 3 (دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، 1968)، ص 235؛ ينظر أيضاً:

Taef Al Azhari, "Dayfa Khatun, Ayyubid Queen of Aleppo 634 - 640 A.H./ 1236 - 1242 A.D.," *JAMES Annals of Japan*, no. 15 (2000), pp. 27-55, accessed on 28/6/2018, at: <https://bit.ly/37uhA6A>

16 غافن هامبلي، "تبديات المرأة المسلمة في العصور الوسطى والتاريخ والتأريخ"، في: هامبلي (محرر)، ص 31-35.

17 Galina Yermolenko, "Roxelana: The Greatest Empress of the East," *The Muslim World*, vol. 95, no. 2 (2005), pp. 231-248, accessed on 23/4/2018, at: <https://bit.ly/2ti9iqj>

18 المريني، ص 177.

19 نسبية علاوي، "دور آل كوبرلو في إصلاح أوضاع الدولة العثمانية، 1656-1702م"، *مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية*، مج 6، العدد 2 (2007)، ص 244-269، شوهد في 2018/2/28، في: <https://bit.ly/2Syxubx>

20 هامبلي، "تبديات المرأة المسلمة"، ص 25.

تزداد القيمة العلمية لأي بحث أكاديمي عندما يهدف الباحث فيه إلى الحقيقة التاريخية النسبية، ويتسم بروح نقدية ويسعى وراء الأحداث والوقائع التاريخية بمعزل عن أي مُسَلِّمات أو أفكار متوارثة⁽²¹⁾. ومن هذا المنطلق، حاولنا دمج التفاصيل الصغيرة المتناثرة المتعلقة بعدد من نساء الأسرة الصفوية اللاتي مكنتهن الظروف من ممارسة السلطة السياسية، والدفع بسيرهن إلى متن السياق التاريخي.

أولاً: نشأة الدولة الصفوية (1501-1722)

من المفيد قبل دراسة تاريخ النساء في الدولة الصفوية أن نلّم بإيجاز السياق التاريخي الذي نشأت فيه الأسرة الصفوية، حيث تعود أصولها إلى الشيخ صفي الدين إسحاق الذي تمكّن حفيده الشاه إسماعيل الأول من توحيد بلاد فارس كلها تحت حكمه، وتوّج على العرش في عام 907هـ/1501م، وأعلن تحوّل البلاد إلى المذهب الشيعي الإثني عشري⁽²²⁾.

لم يمثل صعود نجم الدولة الصفوية لحظة تحوّل في تاريخ فارس فحسب، بل في تاريخ الشرق الأوسط؛ إذ برزت في إطار منظومة فارسية شيعية تسعى لإيجاد مدينة فاضلة على أرض فارس. وعلى الرغم من أن اصطباغ البلاد بالصبغة الشيعية شكّل مزيداً من القيود الاجتماعية على النساء، فإن ذلك حصل بدرجات متفاوتة في سياقات أتاحت للمرأة آفاقاً استطاعت العبور منها والقيام ببعض الأدوار السياسية والدينية والاجتماعية⁽²³⁾.

ثانياً: تطوّر مصطلح الحريم "حرمسرا"

اشتقت لفظة الحريم من كلمة الحرم. وحرم الرجل ما يزود عنه ويحميه. والحرم ما يُحرم انتهاكه من ذمة وحق، وتعني أيضاً أهل الرجل. ومن هنا جاء لفظ الحريم بمعناه العام، ويعني المكان المقدس باللغة الفارسية، وهو المكان المُصان حرّمته، ومنه "الحرم المكي" و"الحرم النبوي"، حيث يُحرّم على غير المسلمين دخوله⁽²⁴⁾. بينما يطلق عليه الأتراك لفظ "سراي"، أي القصر الكبير. والإشارة هنا إلى الجزء الذي تعيش فيه النساء ولا يُسمح بالدخول إليه لغير أفراد العائلة نفسها، وهو عبارة عن مبنى بأسوار عالية يحمي من في داخله من عيون المتطفلين، وكان يحتوي على قاعات كبرى لاستقبال النساء والإعداد للاحتفالات وحناء غنّاء مُزدانة بالأزهار العطرة ونوافير المياه لترطيب الأجواء⁽²⁵⁾.

21 عمرو عثمان، "التاريخ العالمي: موضوعه ومناهجه ودراسته من خلال تاريخ الأشياء"، أسطور، العدد 1 (كانون الثاني/يناير 2015)، ص 19.

22 الشيخ صفي الدين إسحاق، مؤسس ما يُطلق عليه "الطريقة الصفوية" التي ظهرت في القرن الرابع عشر الميلادي في مدينة أردبيل شمال غرب إيران، حيث كانت فارس في ذلك الوقت تمر بإحدى الفترات غير المألوفة من التجزؤ السياسي واللامركزية. ينظر: إدوارد جرانفيل براون، تاريخ الأدب في إيران من بداية الحكم الصفوي حتى نهاية الحكم القاجاري، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي وإبراهيم أمين الشواربي ومحمد علاء الدين منصور، ج 4 (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005)، ص 54-80؛ Mitra Jahandideh & Shahab Khaefi, "Women's Status during the Safavid Period," Paper presented at the International Conference on Social Science, Social Economy and Digital Conference "Recent Researches in Social Science, Digital Convergence, Manufacturing and Tourism," Spain, May 27-29, 2011, pp. 137-142, accessed on 28/2/2018, at: <https://goo.gl/4hU7Ao>

23 بابايان، ص 418.

24 دن غارسيا فيغوتروا، سفرنامه دن غارسيا فيغوتروا (رحلات داسيلفو فيغوتروا)، ترجمة غلامرضا سميعي (طهران: نشرنو، 1363)، ص 101.

25 عماد الجواهري، "الحريم السلطاني ودوره في الحياة العامة من تاريخ الدولة العثمانية"، مجلة العلوم الاجتماعية، مج 7، العدد 2 (1979)، ص 63-64، شوهد في <https://bit.ly/2L9oV08>؛ ماجدة مخلوف، الحريم في القصر العثماني (القاهرة: دار الآفاق العربية، 1998)، ص 6، 10.

لا يختلف تنظيم قسم الحريم في البلاط الصفوي عن التنظيم والتراتبية المتبعة في البلاط العثماني؛ إضافة إلى النساء والأميرات، هناك "الكنيزكان" (الجواري) والخواجات السود والبيض (الخصيان)، وتُعيّن مخصصات مالية وعينية لجميع العاملين في الحريم⁽²⁶⁾. ويذكر الرحالة والصائغ الفرنسي جان شاردن Jean Chardin (1643-1713)، الذي زار فارس في عام 1666 وكتب مشاهداته عنها في عشرة مجلدات، أن كلمة حرم من الاتساع، حيث تشمل أكبر صومعة للراهبات، وحيث تجد النساء كل ما تحتاج إليه في هذا القسم من وسائل تسليية وأماكن لممارسة الأعمال اليدوية ومسجد للتعبّد والصلاة، وحتى مقبرة العائلة موجودة في الحرم. وكان الشاه هو الرجل الوحيد الذي يدخل عند الحريم، إضافة إلى بعض أفراد العائلة، وكان يسمح للأطباء والمتجمين دون غيرهم بالولوج إليه⁽²⁷⁾. لذا، لم يتمكن الرحالة الأوروبيون من الدخول إلى منطقة الحريم، واعتمدوا على روايات الخدم أو من سحت لهم فرصة الدخول إلى ذلك العالم، مصدرًا للمعلومات، إضافة إلى الحكايات التي حاكها خيالهم الخصب عما يدور خلف تلك الأسوار الشاهقة⁽²⁸⁾.

ثالثًا: من الزواج السياسي إلى نظام الجواري

سعى الجيل الأول من حكام الدولة الصفوية في بداية نشأتها لتطعيم الأسرة الصفوية عبر التزاوج وإيجاد روابط دم مع قبائل القزلباش؛ وذلك لتوطيد العلاقات واكتساب دعم وحماية القبائل التي كانت تتشارك معهم زمنيًا في تولّي السلطة⁽²⁹⁾. وقد شكّل زواج الشاهات بنات القزلباش موردًا مهمًا لتزويد الجيش بالرجال والفرسان من جهة، وتحسين السلالة الصفوية من جهة أخرى. وكانت البداية مع زواج الشيخ جنيد (1447-1460)، الذي لُقّب بالسلطان سليل الشيخ صفي الدين، بخديجة بيگم، أخت الزعيم أوزون حسن (1423-1478)⁽³⁰⁾، ثم تبعه زواج الشاه إسماعيل الصفوي (حكم بين عامي 1501 و1524) بخديجة بيگم⁽³¹⁾. واستمر هذا النهج من الزواج بين أفراد البيت الصفوي من الرجال والنساء إلى بداية عهد الشاه عباس الأول. وتلبيةً لتطورات المرحلة الجديدة، استدعى الأمر توجه شاهات الأسرة الصفوية، كما فعل نظراؤهم من سلاطين الأسرة العثمانية، إلى مصاهرة الحكام وأمراء الكيانات السياسية المتاخمة، لضمان ولاء أولئك الحكام الذين يُحتمل أن يشكّلوا مركزًا منافسًا في وجه الامتداد والتوسع الصفوي وكسب روافد جديدة للدولة. بيد أن التباين كمن في توجه السلاطين العثمانيين إلى الزواج بالكتابات، فمثلًا تزوج عثمان الأول (1258-1326) بكيليكيا،

26 شيفالير، ص 376، 385-389.

27 حسن آزاد، *غوشه های از تاریخ اجتماعی ایران: پشت پرده های حرمسرا (زوايا من التاريخ الاجتماعي لإيران: خفايا الحريم)* (أرومية: انتشارات انزلي، 1357ش)، ص 37-39.

28 يعتقد شاردن أن القيود المفروضة على الحريم في بلاد فارس تفوق كل القيود المفروضة في الدول الأخرى، مثل تركيا والمغول. ومن وجهة نظره، لهذا علاقة بطبيعة الهواء والطقس الحار في فارس، التي تتسبب بإثارة المشاعر الجياشة التي من الصعب السيطرة عليها. ورجال الفرس غيرون على نساءهم، لذا كانت القيود المفروضة أشد. ويبدو أنه كان متأثرًا بنظرية مونتسكيو حول التأثيرات السلبية للمناخ في طبائع البشر؛ إذ ركزت النظرية على أن المناخ الحار يؤدي إلى الكسل والبلادة وإلى إثارة الرغبات لدى الأفراد، وفي هذا الطرح مقالات قائمة على حدود معرفة الرحالة بالحريم، ونظرة إثنومركزية نحو الشرق مقارنة بالغرب. ينظر: شيفالير، ص 369-372.

29 تعني كلمة القزلباش أصحاب القلانس الحمر أو الرؤوس الحمراء. وهم جماعة من الصوفية المتشيعين الذين لقبوا بهذا اللقب نظرًا إلى القبعات أو القلنسوات الحمراء التي كانوا يلبسونها على رؤوسهم وعليها العمامة التركية الملقوفة بـثنتي عشرة لفة، وبشكل مخروطي لتدل على أئمة الشيعة الإثني عشر. ينظر: براون، ص 53.

30 أوزون حسن (1423-1478) هو أبو النصر حسن بك بن علي بن عثمان بن قتلغ بن حاجي بيك. اشتهر بأوزون حسن نظرًا إلى طول قامته، وتعني كلمة أوزون بالتركية طويل، كان زعيم قبيلة الآق قوبلو (الشاه البيضاء) السنية المذهب، وهي من أشهر القبائل التركية التي أسست إمبراطورية قصيرة في إيران والعراق وشرق الأناضول وأرمينيا وأذربيجان، وأدت دورًا فاعلاً في الحياة السياسية في إيران في القرن الرابع عشر. ينظر: محمد سهيل طقوش، *تاريخ الدولة الصفوية في إيران*، 907-1148هـ/1501-1736م (بيروت: دار النفائس، 2009)، ص 26، 30؛ وينظر:

"Uzun Hasan, Turkmen ruler," *Encyclopaedia Britannica*, accessed on 10/6/2020, at: <https://goo.gl/QrXBTH>

31 Fairchild Ruggles (ed.), *Women, Patronage, and Self-Representation in Islamic Societies* (New York: State University of New York Press, 2000), pp. 130, 141.

وزوج ابنه أوركخان بفتاة يونانية اسمها نيلوفر⁽³²⁾. واتجه الحكام في العهد الثاني للأسرتين إلى إدخال عناصر جديدة في الحريم؛ فاتخذوا المحظيات من الجوارى في عهد الشاه طهماسب (حكم بين عامي 1524 و1576)، وبات حكام المقاطعات يحرصون على إرسال بناتهم إلى البلاط الصفوي كهدايا لنيل شرف مصاهرة الشاهات⁽³³⁾. ولاحقاً انتقلت الدولة إلى مرحلة شراء الجوارى الشركسيات والجورجيات اللاتي كان لهن دور بارز في البلاط الصفوي، وأمهات للشاهات لاحقاً⁽³⁴⁾.

غالبًا ما كانت النساء هن أكثر فئات المجتمع تأثرًا بالتغيرات الاجتماعية والسياسية، فكلما انتقل الحكم إلى أحد الشاهات، كانت باكورة أعماله فرض قوانين جديدة لتقييد المرأة وإثبات سيطرته؛ فعانت النساء في الدولة الصفوية في ظل حكم غالبية الشاهات. وعُرف الشاه إسماعيل الأول بقسوته الشديدة وتديّنه، وألقت مرجعيته الصوفية بظلالها على النساء؛ فبنت محرومات من الخروج من بيوتهن إلا للضرورة، وكُنَّ هدفًا يستعرض الشاه من خلالهن قدراته وانتصاراته، ويأمر أتباعه بقتل النساء وبقر بطون الحوامل منهن عند هزيمة أعدائه وسقوط المدن، وطغى مقتته النساء العاهرات في تبريز أن أمر بتقطيع ثلاثمئة امرأة نصفين في الميدان كي يكتن عبرة لغيرهن⁽³⁵⁾.

عانت المرأة الأمرين في عهد الشاه طهماسب على الرغم من انتشار دور الدعارة في أرجاء البلاد وإصدار القوانين بتسجيل العاهرات وإلزامهن بدفع الضرائب⁽³⁶⁾. بيد أن الشاه ثاب لنفسه بعد منام رآه، وقرر التديّن وتعزيز القيود على المرأة وتوثيقها في شكل سبعين مادة قانونية، أُطلق عليها قانون طهماسب. وفي هذه القوانين أُلزمت النساء، بمن فيهن العجائز وكبيرات السن، بعدم الخروج من المنزل إلا للضرورة القصوى، ولم يُسمح لهن بالسير في الطرق العامة، بل مُنعت نساء الصفوة من ركوب الخيل والرماية بناء على نص القانون الثالث والستين⁽³⁷⁾. واستمر مسلسل القمع وتكبير النساء أكثر فأكثر في عهد الشاه صفي الأول، أو الشاه سليمان، كما أُطلق على نفسه لاحقاً (حكم بين عامي 1629 و1642) الذي فرض عليهن تغطية أنفسهن بالكامل في الأماكن العامة، وكان لوعبًا مولعًا بالنساء، وتملك يمينه أكثر من ثلاثمئة امرأة من الحسنات في حريمه. واعتاد إهداء الفتيات إلى الأمراء بعد أن يقضي معهن ليلة واحدة، وكانهن سلعة يأخذ منهن مبتغاه ثم يُزوجهن بالأمراء⁽³⁸⁾.

لم تسلم قريبات الشاه من ظلمه؛ فهذه عمته مريم بيگم، أرملة أحد الأعيان، تعلق قلبها بأحد قورجيان الشاه وكان يُدعى ساروتقي⁽³⁹⁾، فأمر الشاه بقطع رأسه على الفور، واستدعى عمته وأثبها على تصرفها وأمرها بضبط سلوكها. بقيت العمّة حاقدة عليه، وبعد

32 Leslie Peirce, *The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire* (New York: Oxford University Press, 1993), Preface, Introduction.

33 آزاد، ص 242.

34 بابايان، ص 436؛ جملي كارري وجوواني فرانسيسكو، *سفرنامه كارري (رحلات كارري)*، ترجمة عباس نخجواني وعبد العلي كارنگ (تبريز: اداره كل فرهنگ وهنر آذربايجان شرقي، 1348ش)، ص 149.

35 آزاد، ص 228.

36 فريز، ص 466-467.

37 مهناز شايسته فر ومحمد خزاي وشهين عبد الكريمي، "بررسی جایگاه اجتماعی زنان وکودکان در دوره شاه طهماسب صفوی (930-983ق) براساس تطبیق نگاره های نُسخ شاهنامه طهماسبی وهفت اورنگ جامی" ("دراسة الحالة الاجتماعية للمرأة والطفل في عهد الشاه طهماسب الصفوي (930-983هـ) بناء على تطبيق نسخ من صور شاهنامه طهماسب والهفت أورك جامی")، *زن در فرهنگ وهنر*، مج 6، العدد 2 (1393ش)، ص 189-190، شوهده في 28/2/2018، في: <https://bit.ly/39y5NwM>

38 Jahandideh & Khaefi, p. 139.

39 قورجيان: كلمة تركية مُركبة من كلمة "قور" وتعني السلاح و"جی" أي دار، وهو المسؤول عن مخزن الأسلحة. وتشير إلى فرسان القبائل التركمان الذين كانوا لا يتحركون من دون أسلحتهم التي تشمل السهم والقوس والسيف والخنجر والمطرقة، وكان الفارس منهم مخزن أسلحة متنقل. وهم ينتمون إلى قبائل القرلباش ذوي القلنسوات الحمر. ينظر: علي أكبر، *لغت نامه دهخدا: شماره مسلسل: 79 حرف ف (معجم دهخدا)* (طهران: چاپخانه دانشگاه تهران، 1341ش)، ص 516.

وفاته عبّرت عن ذلك الحقد الدفين؛ فرجّحت ابنه حسين ميرزا ضعيف الشخصية والمختل نفسياً ليخلفه على العرش بدلاً من ابنه الآخر عياش ميرزا الذي تميز بالشجاعة والذكاء⁽⁴⁰⁾.

شهدت المرأة أصعب الفترات خلال حكم الشاه عباس الثاني (1642-1666) الذي كان قاسياً جليفاً مختل النفس، تفتّن وتلذذ بتعذيب النساء وارتكاب أشنع الجرائم فيهن، مثل حرقهن أحياء، وأنشأ أفراناً خاصة لحرق الناس. ففي أحد المواقع أمر الشاه ثلاثاً من محظياته بشرب الخمر، فأبين فعل ذلك على الرغم من تكرار الأمر؛ فأمر بإلقائهن في نار متوهجة وإحراقهن أحياء⁽⁴¹⁾.

لم يشهد وضع المرأة تحسناً إلا خلال حكم الشاه عباس الأول (1588-1629) الذي أمر بتخفيف القوانين لتتمتع النساء بشيء من الحرية، وسمح للنساء من غير الطبقة العليا بحرية الحركة والتجول، إضافة إلى تخصيص ليلة لهن يتجولن فيها بحرية ومن دون وضع نقاب، وينعمن بمشاهدة الألعاب النارية والاحتفالات في الشوارع، وفي تلك الليلة يُمنع الرجال من التجول حتى تتمكن النساء من الاستمتاع من دون وجود عيون متربصة في الأجواء، وإذا شوهد أحدهم يختلس النظر يُقتل مباشرة، وحُصص يوم الأربعاء من كل أسبوع للنساء ليُتاح لهن اللهو بحرية ومن دون وضع النقاب في حدائق چهارباغ وعلى جسر الثلاث والثلاثين فتحة في العاصمة أصفهان⁽⁴²⁾.

وعلى النقيض من وضع المرأة العام، تمتعت النساء في البلاط الصفوي بقدر من الحرية، وسمح لهن بركوب الخيل والرماية والصيد⁽⁴³⁾، وشاركت زوجات الشاه إسماعيل الأول في الحروب ضد العثمانيين مثل تاجلو بيگم وبهروزه خانم⁽⁴⁴⁾. ومارست النساء أدواراً مهمة في الحياة السياسية في فترة حكم الشاه طهماسب؛ فكانت تاجلو بيگم، والدة الشاه، السند والوصي في بداية حكمه، ثم باتت أخته شاهزاده سلطانم مستشارته الخاصة، وأخيراً عيّنت ابنته المفضلة بري خانم في منصب مستشاره الأول والذراع اليميني له⁽⁴⁵⁾. وباتت الملكة الأم دلارام خانم، والدة الشاه صفي الأول، العقل المدبر والحاكم الفعلي للبلاد، ولا سيما أنها السبب باعتلائه عرش المملكة⁽⁴⁶⁾.

بطبيعة الحال، لم تشغل نساء دوائر الصفوة فضاء الحياة الاجتماعية في المجتمع الفارسي في عهد الدولة الصفوية؛ فالقطاع الأكبر كانت تمثله الريفيات اللاتي يعشن ضمن جماعات أو قبائل في القرى والمدن الصغرى، وعاشت زوجات الحرفيين والعاملين في النشاطات الصناعية بطريقة أكثر تنظيماً ونمط حياة مختلف باختلاف أوضاعهن الاجتماعية، يضاف إليهن عددٌ لا يُستهان به من النساء المتزوجات بعقود زواج مؤقتة⁽⁴⁷⁾. يليهن في نهاية السلم الاجتماعي الإماء والعبيد، فضلاً عن فئة عاشت في قعر المجتمع، انتشرت في غالبية المدن، وهنّ العاهرات، ووفقاً لما يرويه فريز، "ناهز عدد العاهرات في أصفهان أربعين ألفاً"⁽⁴⁸⁾.

40 غلامرضا گلي زواره، "زنان وزمامداران صفوي"، ماهنامه پیام زن (النساء والحكام الصفويين)، مج 161، العدد 5 (1384ش)، شوهد في 2018/3/1، في: <https://bit.ly/2t78YE2>

41 ينظر: فريز، ص 472؛ 138: Jahandideh & Khaefi.

42 نصر الله فلسفي، زندگانی شاه عباس اول خصوصيات جسمي، روحي، أخلاقي وذوقي أو (حياة الشاه عباس الأول خصائصه الخلقية والخلقية والروحية والمعنوية)، ج 2، ط 4 (طهران: انتشارات دانشگاه تهران، 1347ش)، ص 281-282؛ 138: Jahandideh & Khaefi.

43 ماريا زوب، "جواهر العجائب، السيدات المتعلمات، والأميرات السياسيات في مقاطعات إيران إبان الحكم الصفوي"، في: هامبلي (محرر)، ص 412، 416.

44 مصطفى شرف، "دور نساء البلاط الصفوي في تاريخ الدولة الصفوية"، مجلة رسالة المشرق، مج 27، عدد خاص (2011)، ص 196؛ يد الله شكري (محرر)، عالم آرای صفوي (تاريخ عالم آرای الصفوي) (طهران: انتشارات بنیاد فرهاد، 1363ش)، ص 501-502.

45 Manučehr Pārsādušt, "PARIKĀN KĀNOM," *Encyclopedia Iranica*, 20/7/2009, accessed on 23/03/2018, at: <https://bit.ly/2ZGwKhH>

46 فريز، ص 474-475.

47 الزواج المؤقت (المتع) عند الشيعة، هو زواج محدد بمدة معينة، وله شروط، وينبغي تسجيله أمام المحكمة حتى يتم الزواج، ويتربط عليه مجموعة من الحقوق والواجبات. ينظر: المرجع نفسه، ص 459.

48 Fryer, p. 129; Ronald W. Ferrier, "History of Iran: Women in the Safavid Era," *Iran Chamber Society*, accessed on 23/04/2018, at: <https://goo.gl/JkBGYR>

رابعاً: نماذج لممارسة السلطة من نساء صفويات

ساهم التعليم في صقل قدرات النساء في البلاط الصفوي، حيث اكتسبن وسائل فكرية للتعامل مع المشكلات السياسية، وتمكّن من ولوج عالم السياسة وممارسة السلطة، دفعهن إلى ذلك رغبتهن في المساهمة في النشاطات الاجتماعية من جهة، وصعود عدد من الحكام ضعاف الشخصية غير القادرين على إدارة شؤون المملكة من جهة أخرى. فشكّلت المرأة السياسية نموذجاً قوياً، وظهرت أميرات وزوجات صفويات كثيرات ممن كان لهن دورٌ سياسي وعسكري بارز⁽⁴⁹⁾. وفي ما يلي نماذج منهن:

1. تاجلو بيگم

زوجة الشاه إسماعيل الصفوي، مؤسس الدولة، وهي أيضاً أم الشاه طهماسب. عُرف عنها قوة الشخصية والجلد، وتمكّنت من اكتساب ثقة الشاه إسماعيل؛ فكان يستشيرها في الكثير من أمور الدولة، وشاركت إلى جانبه في ميدان الحرب، وقاتلت العثمانيين في معركة غالديران (في عام 1514)، وعند وقوعها في الأسر، تمكّنت ببراعة من تحرير نفسها والعودة إلى فارس⁽⁵⁰⁾. وكان لها الفضل في تنصيب ولدها الشاه طهماسب على العرش على الرغم من صغر سنّه، فساندته وحافظت له على العرش في فترة كانت المملكة فيها لا تزال فتية وبنيتها ضعيفة ومحاطة بالأعداء والطامعين، إلى حين اشتد عودته وتمكّن من حكم الإمبراطورية؛ فكافأها بالحدّ من نفوذها ونفيها إلى شيراز لتموت هناك وحيدة⁽⁵¹⁾.

2. شاهزاده سلطانم (مهين خانم)

الأخت الصغرى للشاه طهماسب، كان لها دور مهم في تسيير الشؤون السياسية في البلاد، نظراً إلى ثقافتها العالية وقدراتها المميزة، كانت تتبادل الرسائل الرسمية مع السلطانة حُرْم، زوجة السلطان العثماني سليمان القانوني، لتعميق الروابط وتوثيق العلاقات وإرساء أواصر السلام بين الدولتين، وكان الشاه يستشيرها في الكثير من الأمور، ويعتمد على رأيها في شتى مناحي الدولة، السياسية والاقتصادية والتجارية. وكانت تسعى للخير وتوثيق عُرى الصداقة؛ فمثلاً تمكّنت من إقناع الشاه الذي كان متردداً في تقديم يد العون إلى همايون بن ظهير الدين محمد بابر - نظراً إلى مذهبه السُني - حين لجأ إليه، فرضخ الشاه لمساعي أخته، وخصوصاً بعد أن نقلت إليه الرباعية التي كتبها ظهير الدين، فقدم إليه المساعدات اللازمة⁽⁵²⁾. وبعد وفاة أخيها بهرام ميرزا، تكفّلت برعاية أبنائه الثلاثة، وتفزعّت

49 زوب، ص 404-405.

50 تورد المصادر العثمانية والدراسات الحديثة معطيات وتفصيلات أخرى، وهي أن السلطان سليم أمر بتسليم تاجلو بيگم لتاجيزادة جعفر باي، قاضي العسكر في الأناضول، ورفض إطلاق سراحها. قد تكون هذه النظرية صحيحة، لكن على الأغلب المشار إليها هنا هي بهروزه خانم، الزوجة الثانية للشاه إسماعيل، التي وقعت في الأسر وما عادت إلى فارس بعد المعركة. بيد أن هناك دلائل على صحة رواية عودة تاجلو بيگم؛ منها حملها بابنها الثاني من الشاه بهرام ميرزا بعد المعركة بثلاثة أعوام، كما أن مشاركتها في تنصيب الشاه طهماسب على العرش، وأعمالها الخيرية من منشآت وموقوفات حضارية ورعايتها المزارات المقدسة، وأخيراً ترحيلها إلى شيراز ووفاتها هناك، كلها إشارات تؤكد صحة الرواية الأولى. ينظر:

Roger M. Savory & Ahmet T. Karamustafa, "ESMĀ'İL I ŞAFĀWĪ," *Encyclopaedia Iranica*, 19/1/2012, accessed on 23/03/2018, at: <https://go.gl/vB5HyS>

51 Ibid.: گلي زواره.

52 عبد الحسين نوائ، منابع تاريخي وجغرافياي إيراني 36، شاه طهماسب صفوي: مجموعة اسناد ومكاتبات تاريخي همراه با ياد داشتهاي تفصلي (المصادر التاريخية والجغرافية لإيران 36، الشاه طهماسب الصفوي: مجموعة من الوثائق والرسائل التاريخية مع مذكرات تفصيلية) (طهران: انتشارات بنياد فرهنگ، 1350ش)، ص 75-77؛ شرف، ص 196-197.

لهم ولم تتزوج، فلقبت بـ "سلطانم". توفيت في السنة الثالثة والأربعين من عمرها، فدفنت في قم قرب قبر السيدة معصومة، أخت علي الرضا، الإمام الثامن للشيعة⁽⁵³⁾.

3. پري خان خانم

هي الابنة الثانية للشاه طهماسب وحفيده تاجلو بيگم، ورثت عن جدتها الذكاء والفطنة، وتمتعت بالقدرة على استشراف الأمور السياسية؛ فباتت اليد اليمنى في مجلس والدها وكاتمة أسراره، على الرغم من وجود كبار الأعيان والأمراء، حيث كان يسعى لاستشارتها قبل اتخاذ أي قرار ومنحها الثقة والامتياز في انتقاء السفراء وإرسالهم⁽⁵⁴⁾. كما أكسبتها راحة عقلها وغزارة علمها ثقة زعماء القزلباش الذين كانوا يلجؤون إليها لاستشارتها في مختلف أمور الدولة، ثقةً برأيها وحرصاً على اكتساب رضاها⁽⁵⁵⁾. وفور وفاة والدها تعرضت للسجن⁽⁵⁶⁾ على يد أخيها حيدر ميرزا، الذي انتهز فرصة قربه من الشاه في أثناء مرضه ليعلن نفسه وريثاً للعرش، نظراً إلى خشيته من نفوذها وقدرتها على الاستئثار بحكم البلاد، فراوغته وتخلصت منه بمكيدة بين ليلة وضحاها⁽⁵⁷⁾. ومكّنها طموحها وكفاءتها العالية من إدارة شؤون الدولة بجدارة في الفترة الانتقالية بين حكم أخويها، إلى أن تسلّم أخوها إسماعيل ميرزا حكم البلاد⁽⁵⁸⁾. فحاولت إرساء عرف جديد تقتسم بموجبه النساء والرجال من السلالة الحاكمة العرش إلى أن يعتاد المجتمع تدريجياً وجود امرأة في الحكم⁽⁵⁹⁾. لكن قطع أخوها الشاه إسماعيل الذي لم يرقه تدخلها في أمور الدولة هذا المنحى؛ إذ كان ضد تدخل المرأة في الحكم ويعتقد بعدم أهليتها، فأمر بإقصائها عن دائرة الحكم والنفوذ وعمل على تجريدها من مخصصاتها المالية ومصادرة ممتلكاتها ومعاقبة من يلجأ إلى مشورتها من الأمراء وكبار رجال الدولة، فلم تجد مناصاً سوى التآمر ضد أخيها ونجحت في القضاء عليه، لتعود إلى مسرح الأحداث السياسية وتسيطر على مقاليد الأمور بكل براعة وتحافظ على العرش وعلى خزائن الدولة.

تورد المصادر أن بعضاً من كبار أعيان القبائل طلب منها تولّي الحكم والجلوس على العرش، لكنها رفضت بحجة وجود أخيها الأكبر محمد خدابنده (حكم بين عامي 1578 و1587) وأحقّيته في الحكم⁽⁶⁰⁾. وأدركت، بفطنتها، أن توليها العرش قد يتسبب في إثارة موجة من الاعتراضات، فاعتقدت أن الحل الأمثل هو استدعاء الأمير خدابنده الذي يعاني ضعفاً شديداً في بصره، إضافة إلى شخصيته الضعيفة، وبذلك ستتمكن من الحكم من خلف عباءته. بيد أن القدر لم يُمهّلها؛ إذ حاكت زوجة أخيها (مهدها عليا) الطامعة هي أيضاً في كرسى العرش، مؤامرة للتخلص منها والاستفراد بالسلطة⁽⁶¹⁾. بصرف النظر عن صراعها مع إخوتها الحكام، برهنت پري خان خانم

53 نواني، ص 75-77.

54 Nazak Birjandifar, "Royal Women and Political in Safavid Iran," Master Thesis, McGill University, Montreal, 2015, pp. 51, 102-106, accessed on 28/2/2018, at: <https://goo.gl/AAULZ3>

55 گلي زواره.

56 كانت پري خان خانم تقيم في قصر خاص خارج منطقة الحریم، وتملك حرساً وجواري تابعين لها، وكانت هذه ظاهرة نادرة وخارجة عن المؤلف في ذلك السياق الزمني، وتدل على مدى الثقة التي تمتعت بها الأميرة ليركها والدها الشاه تعيش في منطقة أخرى غير الحریم. ينظر: بابايان، ص 426-427.

57 Birjandifar, pp. 61-63.

58 إسماعيل ميرزا، كان سجيناً في قلعة قهقهة أكثر من ثمانية عشر عاماً، بناء على أوامر الشاه، نظراً إلى سلوكه، لحمايته أولاً، وكف يده عن تهيج الناس وتجميع الجيوش لمحاربة العثمانيين ثانياً. بقي في القلعة إلى أن بلغه أمر اتفاق قبائل القزلباش على اختياره حاكماً فعلياً على البلاد. ينظر: جوزافا باربارو، *سفرنامه هاي ونيزيان در ايران (رحلات البنادقة في ايران)*، ترجمة منوچهر اميرى (طهران: شركت سهامي انتشارات خوارزمي، 1381ش)، ص 464؛ ينظر أيضاً:

Shohreh Gholsorkhi, "Pari Khan Khanum: A Masterful Safavid Princess," *International Society of Iranian Studies*, vol. 28, no. 3-4 (1995), pp. 149-150, accessed on 31/3/2018, at: <https://bit.ly/2QxFszo>

59 بابايان، ص 433.

60 Birjandifar, pp. 64-69, 102-106.

61 Gholsorkhi, p. 148.

عن مهارتها في المجال السياسي وقدرتها على اكتساب ثقة زعماء القزلباش وحكم البلاد، ونجحت في المحافظة على العرش في لحظات انتقال السلطة بسلاسة؛ فكانت حلقة الوصل بين سلسلة من الحكام من دون أن تتأثر الإمبراطورية أو يُصيبها الوهن، لتؤكد بتجربتها ودكائها قوة حضور المرأة في المشهد السياسي.

4. مهد عليا (خير النساء بيگم)

هي زوجة الشاه خدابنده، وابنة أحد الحكام الكبار في مازندران. تمكّنت من الهيمنة على مقاليد الأمور في الدولة الصفوية، بعد أن حاكت مؤامرة للتخلص من منافستها بري خان خانم، ابنة الشاه طهماسب وأخت الشاه خدابنده، وعمدت إلى التخلص من جميع مخالفين حكمها في البلاط. كان زوجها الشاه خدابنده ضعيفاً وغير جدير بتوليّ مسؤوليات الحكم؛ فانتهزت مهد عليا الفرصة لمد نفوذها والتدخل في الحكم باسمه، وبرعت في ضبط الشؤون الداخلية والخارجية في البلاد، وباتت تتدخل في الأمور العسكرية وإعطاء الأوامر في أثناء المعارك، من دون الالتفات إلى رأي الأعوان أو مشورتهم، فكانت عنيدة متصلبة الرأي، أثارت جدلاً واسعاً بين زعماء قبائل القزلباش في البلاط الصفوي؛ إذ لم يتقبلوا تدخلها المفرط في إدارة الدولة، فلجؤوا إلى الشاه خدابنده للتدخل وحل الإشكال والوقوف في وجه زوجته وطموحها اللامحدود وإقصائها في محاولة لإرجاعها إلى عالم الحريم⁽⁶²⁾.

لم يقبل الشاه هذا العرض، ووصل الأمر إلى مهد عليا التي استشاطت غضباً وأرسلت إليهم، مُحذرة إياهم ومُهددة الجميع بأبنائها الأربعة الذين سينتقمون لها شر انتقام إن تعرّضت لأيّ مكروه. حسم الزعماء أمرهم واجتمعت القبائل على سيف واحد، وجرى اغتيالها والتخلص منها بعد أن حكمت مدة سنة ونصف، حافظت خلالها على الدولة وبُناها من طمع زعماء القبائل في ظل حكم حاكم عليل⁽⁶³⁾. وهذه حالة أخرى تبرز قدرة المرأة الصفوية على حكم البلاد بجدارة والتخلص من قيد التقليد الذي يعرقل تقدّمها ويحكم عليها بالإقامة في الفضاء الخاص (الحريم)، وأهدت مهد عليا الإمبراطورية أحد أشهر شاهاتها، الشاه عباس الكبير الذي ورث ذكاء أمه السياسي ونقذ وعيها؛ فانتقم لمقتلها، وشهدت البلاد نسائم التحديث في ظل حكمه، فكان أعظم شاهات الأسرة الصفوية.

5. زينب بيگم

ابنة الشاه طهماسب من زوجته حوري خان خانم، زُوجت بأمر الشاه إسماعيل الثاني (حكم بين عامي 1576 و1577) بعلي قلي خان شاملو، لكنها بقيت في البلاط الصفوي ولم تنتقل إلى هرات، نظرًا إلى سوء الأوضاع فيها، وانتفت هذه الزيجة بوفاة الزوج⁽⁶⁴⁾. كانت زينب ذات شخصية قوية، وحازت ثقة أخيها الشاه خدابنده؛ فكان يستشيرها في غالبية شؤون الدولة، وأطلق يدها في الحريم، وشاركت في مجالس الشورى لإدارة شؤون الدولة أو تجهيز الجيش⁽⁶⁵⁾.

تولت تربية ابن أخيها الشاه عباس الأول ورعايته منذ نعومة أظفاره؛ فكانت الأمر الناهي والقائد الحقيقي في المعارك العسكرية ضد الدولة العثمانية. ونتيجة قوة نفوذها وعظيم سلطتها في إدارة البلاد؛ قرر الشاه الحدّ من ذلك النفوذ، فأمر بإخراجها من أصفهان

62 طقوش، ص 115-117.

63 آزاد، ص 251؛ ينظر أيضاً:

Colin Mitchell, *The Practice of Politics in Safavid Iran: Power, Religion and Rhetoric* (London/ New York: Tauris Academic Studies, 2009), p. 162.

64 كان الصفويون يزوجون بناتهم إما من القزلباش وإما يحتفظون بهن في العائلة، ولم يكن يُسمح للأميرات بالزواج بأبناء عمومتهن أو أخوالهن، لإغلاق أي قناة يمكن أن توصل إلى تركيز الدماء الملكية في فرع أبوي واحد. ينظر: بابايان، ص 436 (الهامش).

65 گلي زواره.

وإرسالها إلى قزوين⁽⁶⁶⁾. وبعد فترة قصيرة، تمّ الصلح بينهما، وعادت زينب إلى تعبئة دورها بصفقتها مستشارة للشاه. وفي عام 1015هـ/ 1606م، كان الشاه عباس متردداً في إرسال الجيش لقتال العثمانيين، نظراً إلى قلة العدد والعُدَد، مقارنة بالجيش العثماني، لكن زينب بيگم نصحته بعدم التردد وإرسال الجيش الذي تمكّن من الانتصار على الجيش العثماني، فزادت ثقة الشاه والجيش برأيها؛ وهكذا باتت المستشار الرسمي للدولة في الشؤون كلها. وكانت تحضر مجالس استقبال السفراء واستلام الهدايا⁽⁶⁷⁾.

ورد في مذكرات دون غارسيا، السفير الإسباني في إيران في عام 1028هـ/ 1619م، أن من عجائب الأمور التي شاهدها في مجلس الشاه عباس الأول هو حضور امرأة شابة بين أعضاء المجلس، كانت مرتدية "الجادر" (رداء فضفاض يُغطي كامل الجسم) وتضع النقاب الأبيض، كعادة النساء في فارس، غير أنها كانت مكشوفة الوجه، اتّسمت بالوقار والاحترام، وكانت تتمعّن في هدايا السفير للشاه، تحيط بها مجموعة من العسكر التابعين لها. هذه السيدة هي زينب بيگم، عمّة الشاه عباس التي كان يثق برأيها ويستشيرها في جلّ أمور المملكة، حتى العسكرية منها⁽⁶⁸⁾. ويعدّ ظهور النساء والمشاركة في مجالس الرجال من الظواهر النادرة التي اقتص بها البلاط الصفوي.

وفي عام 1029هـ/ 1620م، تعرّض الشاه لوعكة صحية أقعدته في الفراش؛ فهاج زعماء قبائل القزلباش واختلّفوا في ما بينهم، فأشارت زينب بيگم على الشاه بالخروج عليهم لمنع وقوع حرب بين القبائل، فتمالك الشاه نفسه وخرج على الملأ؛ فكان لهذا التصرف سحر "المرهم" على الجميع، فسكنت القلوب برويته وانتهت الأزمة⁽⁶⁹⁾.

استمرت زينب بيگم بممارسة نفوذها حتى وفاة الشاه عباس الأول في عام 1038هـ/ 1629م، وفي عهد الشاه صفي الدين، أمر بطردها من البلاط الصفوي وحدّ من نفوذها، فبقيت آخر عشرة أعوام من عمرها تعيش في عزلة، بعيداً عن الأضواء إلى أن وافتها المنية. اهتمت زينب بيگم بأعمال الخير؛ فخلّفت الكثير من الآثار والإنجازات المتمثلة في إصلاح المباني وورصف الطرق، وخصصت جزءاً من أموالها لإقامة المدارس وأماكن الضيافة⁽⁷⁰⁾.

تؤكد هذه النماذج الدور الفاعل الذي اضطلعت به نساء الأسرة الصفوية، ونجاحهن في المحافظة على بنية الدولة في فترات حرجة؛ إذ تمكّن من تسيير الانتقال من حاكم إلى حاكم، إما لصغر سن الحاكم أو لإصابته بعلّة تمنعه من الحكم، أو لغيابه عن البلاط الإمبراطوري، فنجحن في تمييز أنفسهن باستخدام قوة شخصيتهن والسلطة التي يملكنها في فارس في القرن الأول من الحكم الصفوي، فبرزن فاعلاً سياسياً في المجتمع، على الرغم من القيود المفروضة عليهن.

وإن كان نموذج المرأة القوية قد تمثّل في شخصية السلطانة الأم التي كانت تسعى لضمان وصول ابنها إلى كرسي العرش في الإمبراطورية العثمانية، فبإمعان النظر نجد أن النساء الصفويات تألّفن وأدّين أدواراً جوهرية في المحافظة على استقرار أركان الإمبراطورية، ولم تكن ممارسة السلطة حكراً على الزوجة أو الملكة الأم فحسب، بل أدّت الأخت والابنة، فضلاً عن العمّة والجدّة، أدواراً محورية في تغيير سياسات المملكة. واتّسم البلاط الصفوي بولوج نساء من أصول ملكية عالم السياسة، وفي المقابل، كان أبرز اللاتي ولجن عالم السياسة في البلاط العثماني من أصول غير ملكية. ولم يقتصر دور الحرّيم الصفوي على إدارة شؤون الحرّيم وتبادل الرسائل وممارسة

66 بيتر دلاواله، سفرنامه بيتر دلاواله: قسمت مربوط به ایران (رحلات بيتر ديلافالي: القسم المتعلق بإيران)، ترجمة شعاع الدين شفا (طهران: شركة انتشارات علمي وفرهنگي، 1370ش)، ص 364.

67 فيگوتروا، ص 271.

68 المرجع نفسه.

69 گلي زواره؛ فلسفي، ص 281.

70 شرف، ص 197-198.

السلطة من خلف الستار؛ إذ فاقت المرأة الصفوية نظيرتها العثمانية بمشاركتها في مجالس الشورى وميدان القتال ومحاربة الأعداء إلى جانب الشاه. وعلى الرغم من هذا الوضع، فإن الخصوصيات المرتبطة بكل حالة، قد تجعل الوصول إلى تعميمات عن الصيرورة التاريخية أمرًا متعذرًا لا ينطبق على النماذج كلها، بيد أنه ينبغي النظرة التقليدية القائمة على المُسلّمات.

خامسًا: الدور الاجتماعي للنساء في البلاط الصفوي

من أهم الأدوار الاجتماعية التي فرضت على نساء البلاط الصفوي هو تقديمهن بوصفهن هدايا ملكية إلى حكام البلدان الأخرى، مثل الآق قوينلو، أو إلى الأمراء، مثل زواج خير النساء بيگم، ابنة إسماعيل الصفوي، بالأمير حسام الدين، حاكم فومن ورشت، وزواج شاهزاده بيگم، ابنة الشاه عباس الكبير، بميرزا محسن رضوي، حاكم مشهد، أو إلى كبار الأعيان المحليين أو رجال الدين، مثل زواج ملك نسا بيگم، الابنة السادسة للشاه عباس، بميرزا جلال شهرستاني مسؤول العتبات الرضوية، في إطار ما يُعرف بالزواج السياسي (أي اعتبارهن أدوات سياسية)، وخصوصًا في بداية نشأة الدولة الصفوية، وذلك لتقوية الروابط أو لتأمين الدولة من خطر أحد الحكام، أو كونه بندًا ضمن إحدى المعاهدات أو العقود، أو للاقتراب من السكان المحليين وكسب ثقتهم ودعمهم، مثل زواج خانوش بيگم، ابنة الشاه إسماعيل الأول وأخت الشاه طهماسب، بالشاه نعمت الله يزدي⁽⁷¹⁾. ولم يكن للمرأة الحق في إبداء رأيها في اختيار الزوج أو الحق في تقرير مصيرها، فهي طوع أمر الشاه. وكان على النساء اللاتي يخرجن من البلاط الصفوي القسم بكتمان أسرار الحريم وكل ما يتعلق بالعلاقات بالشاه⁽⁷²⁾.

اختلف طول الفترة الزمنية في تفعيل نظام المصاهرة بين الوعد أو عقد الزواج، وانتقال العروس إلى بيت زوجها باختلاف الحاجة، حيث يُعزّز التحالفات السياسية لتوطيد السلطة ودعمها شرعيًا؛ فدخل الأمر حيّز التنفيذ كان يتم حينًا فور الاتفاق، ويتأخر حينًا آخر، أو لا يتم تنفيذه مطلقًا، مثل زواج پري خان خانم ببن عمها بديع الزمان الذي لم يدخل حيّز التنفيذ⁽⁷³⁾. وفي أحيان كثيرة كانت هذه الزيجات تنتهي بنشوب النزاعات وتداخل مصالح الطرفين؛ فكانت النساء ضحية هذه الخلافات، كما حدث مع عمّة الشاه عباس الأول، مريم سلطان بيگم، التي كانت متزوجة بالأمير خان أحمد حاكم گیلان الذي قُتل في أعقاب التمرد ضد الشاه عباس⁽⁷⁴⁾.

على الرغم من خروج النساء من البلاط الصفوي، فإن ولاءهن كان مستمرًا للشاه، وكُنَّ بمنزلة عميلات سرّيات له في البلاطات الأخرى، يمددنه بالأخبار فور اندلاع بواذر للتمرد ضده، أو فور إحساسهن بأي خطر يُهدد بالبلاد أو بمصلحة الشاه؛ ففي عهد الشاه عباس الأول كانت ابنة الأمير إسماعيل، شقيق الشاه عباس، متزوجة بالشاه وردي خان، حاكم اللوريستان، الذي ثار وتمرد ضد الشاه ولم ينصت لتوصيات زوجته، بل عتفها وضربها، فأخبرت على الفور، وفي سرية تامة، عمها بخطة زواجها، فتمكّن الشاه من تدارك الأمر والقضاء على هذا التمرد⁽⁷⁵⁾.

71 فاطمة دانش، "خانوش بيگم، بانوى شيعه در يزد (بيوند از تصوف تا سلطنت)" ("خانوش بيگم، سيدة شيعية في يزد (اتحاد من الصوفية إلى الملكية")، راسخون، 2018/9/30، شوهده في 2019/12/19، في: <https://bit.ly/3dprR5F>

72 كميغفر، ص 227.

73 Birjandifar, p. 28.

74 E. Ross, & Eileen Power, *Don Juan of Persia AShi'ah Catholic, 1560-1604*, G. La Strange (trans.) (New York/ London: Harper & Brothers, 1568), pp. 214-215.

75 Ibid., p. 216.

سادساً: مساهمات النساء في الشأن الحضري والأعمال الخيرية

مقارنة بالفترات السابقة عليه، أنصف الدين الإسلامي المرأة، فحازت حقها في الميراث أسوة بإخوتها الرجال، وعلى الرغم من أنها تراث نصف ما يرثه الذكر، فإنها تمتعت بالسلطة التامة على نصيبها من الميراث، إضافة إلى ما فرض على الزوج باعتباره حقاً للزوجة من مهر ونفقة، فضلاً عن المخصصات المالية للنساء في الحريم. وفي هذا السياق، باتت نساء البلاط الصفوي يتعمن بدرجة كبيرة من الاستقلالية المادية، وبذلك انخرطت المرأة الصفوية في النشاطات الاقتصادية المتنوعة، رغبة منها في المساهمة في ازدهار الحضارة الصفوية؛ فعمدت إلى رعاية الفن والهندسة المعمارية، وتجلّى هذا الاهتمام بتخصيص جزء من ثروتها في سبيل الخير ووقف الكثير من الأبنية. وكان لإعلان المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للبلاد انعكاسه على النساء، حيث أدّين دوراً جوهرياً في المحافظة على المعتقدات الشيعية، وسارعن إلى التباري في إقامة المدارس الدينية والإنفاق على العتبات المقدسة؛ فحظبت الأضرحة في المدن الدينية قم وأردبيل، حيث ضريح الشيخ صفي الدين، بتمويل زاخر؛ إذ بلغ مجموع الأوقاف المخصصة لهذا الضريح أكثر من 20 في المئة من أوقاف النساء⁽⁷⁶⁾. ويكشف لنا الدور الذي قامت به النساء عن مدى وعيهم وحرصهم على تأسيس مؤسسات الأوقاف وإقامة المشروعات الخيرية في الوقت الذي كان بعض الحكام لاهين عن إدارة أمور الدولة وغارقين في الملذات الحسية⁽⁷⁷⁾.

وفي واقع الأمر، وعلى الرغم من طغيان عُرف احتجاب النساء (يشت پرده) في المجتمع الفارسي والموروثات الاجتماعية تجاه النساء باعتبارهن شرف الرجال، فإنهن استطعن أن ينفذن عبر ما كان يوحي ظاهره بأنه حدود واضحة بين العام والخاص، وتمكّن من موضعة أنفسهن داخل هذه الأطر الثقافية، ولم تنحصر هذه المشاركات في طبقة الصفوة من النساء، بل اتسعت لتشمل النساء من الطبقات الأخرى.

لا يتسع المجال هنا للتعرض بالتفصيل لمساهمات النساء الحضارية، بيد أنه لا بد من سرد بعض النماذج؛ فكما عُرفت السلطنة حُرْم زوجة السلطان سليمان القانوني بخدمة المجتمع وتوظيف أموالها الخاصة لبناء الوقفيات الخيرية مثل "مجمع خاصكي" والأسبلة والقنوات⁽⁷⁸⁾، عُرفت في المقابل تاجلو بيگم، زوجة الشاه إسماعيل الأول، باهتمامها أيضاً بالخير وتخصيص الكثير من الموارد المالية لإنشاء المزارع والحدايق والقرى، وتعهّدت بإعادة بناء قبة ضريح حضرة السيدة فاطمة المعصومة أخت الإمام الثامن للشيعية الإمام الرضا في مدينة قم، إضافة إلى توظيف جزء من ثروتها لبناء جسر "دختر" على نهر قزل أوزون وترميمه، وإعمار بناية "گنبد عالي"، حيث ضريح الشيخ صفي الدين، المعروفة بـ "جنت سرا"⁽⁷⁹⁾.

اهتمت دلارام خانم، والدة الشاه صفي الدين وجدّة الشاه عباس الثاني، بالتخطيط المدني؛ فوظفت جزءاً كبيراً من أموالها للاستثمار في الأبنية المعمارية، في العاصمة الجديدة للدولة الصفوية أصفهان التي أسسها الشاه عباس الأول، لتتال النصيب الأكبر في المشروعات الخيرية، فأنشأت نُزلين، ويُعدّ نزل الجدة الكبيرة من أروع مشروعاتها وأكبرها، وعلامة فارقة في المدينة وعنصر جذب للتجار⁽⁸⁰⁾. كما

76 Birjandifar, pp. 37-39.

77 هامبلي، "تبديات المرأة المسلمة"، ص 24.

78 جان ألبجونج، السلطانتان خرم ومهرماه: قرينة القانوني وسليلته، ترجمة وليد عبد الله القط (القاهرة: دار النيل، 2014)، ص 20-21.

79 Kishwar Rizvi, *The Safavid Dynastic Shrine: Architecture, Religion and Power in Early Modern Iran* (London: British Institute of Persian Studies, 2011), p. 72; Newman, p. 23, 36.

80 ستيفن بليك، "إسهامات المرأة في المشهد الحضري: البناء من النساء في أصفهان الصفوية، وشاه جهان آباد المغولية"، في: هامبلي (محرر)، ص 469-499.

اهتمت ببناء المدارس الدينية التي ما زالت قائمة في أصفهان إلى اليوم، وحرصت على وقف المباني ضماناً لاستمراريتها⁽⁸¹⁾. ومما لا شك فيه أن الدخل السنوي المخصص للجدة كان العامل الرئيس الذي مكّنها من بناء تلك المباني ورعايتها. وفي المقابل، اهتمت السلطنة كوسم، زوجة السلطان العثماني أحمد الأول (حكم بين عامي 1603 و1617)، بإنشاء الخانات والمساجد ومدرسة الوالدة⁽⁸²⁾. وعُرفت كلتاهما بنفوذهما القوي في البلاطين الصفوي والعثماني ونجاحهما في تشكيل دولة ظل تحكّم فيها من خلف الستار وبالتحالف مع الصدور العظام.

خاتمة

صفوة القول إن مسيرة المرأة في العصر الصفوي شهدت الكثير من التناقضات، والمثير للاهتمام كيف تأثرت الأسرة الصفوية في القرن السادس عشر بالتصور المغولي التركماني؛ وذلك نتيجة انتهاج سياسة الزواج التي اتّبعتها شيوخ وشاهات الدولة الصفوية للحصول على دعم قبائل القزلباش وتوثيق أواصر العلاقات وكسب ولائهم، فامتزجت الأعراف والتقاليد التركمانية مع المواقف والممارسات الفارسية لتخرج لنا بتوليفة فريدة من نوعها، انعكست على مسيرة الدولة الصفوية، فظهرت في صورة صراع الأبناء بشأن وراثة العرش، وفي الدور الذي قامت به النساء في البلاط الصفوي، وعززت الرؤية السياسية للمرأة في المجتمع الصفوي، وأثره الاعتقاد بأن الله منح جميع أفراد الأسرة الصفوية القدرة على القيادة، من هنا كان الاهتمام بتعليم المرأة منذ نعومة أظافرها وتجهيتها للمشاركة السياسية، حالها حال الرجل، لتتصرّف السلطة في السلالة الملكية. وفي الواقع مارست نساء الأسرة الصفوية السلطة على نحو مباشر في البلاط الإمبراطوري حين تهيأت لهنّ الظروف، أو غير مباشر بوصفهن أداة سياسية في بلاطات أخرى انتقلن إليها بحكم الزواج، أو بصفتهم أمهات السلالة الملكية.

مع حلول القرن السابع عشر، بدأ الاتجاه إلى تغيير هذا التقليد وحجب الأميرات، أسوة بالأمراء حتى لا يطالبن بسدة الحكم. واللافت هو تراجع ظهور المرأة بصفتها فاعلاً سياسياً في مجرى الأحداث التي تزامنت مع بداية ضعف الدولة واتجاهها نحو السقوط، بعكس ما افترضته الرؤية التقليدية من اقتران تدخل النساء في الحكم بتدري حال الدولة وانحدارها.

إلى جانب ذلك، ألقى انتشار التشيع ظلالة على مسيرة المرأة في فارس وحدّ من نشاطاتها، وحصرتها في فضاءات معيّنة وقيدها بقوانين فُرِضت عليها باسم الدين، لكنها، على الرغم من تلك الأغلال، نجحت في فرض شخصيتها واستطاعت أن تجد لنفسها مساحات تنفذ من خلالها إلى معترك الحياة الفكرية، ومن ثم المجال السياسي والاجتماعي والميادين كلها التي كانت حكراً على الرجال في فارس.

أخيراً، وقرت ندرة المعطيات عن المرأة الصفوية في كتابات المؤرخين الذكور المعاصرين لها، والعموض الذي كان يحوم حول مؤسسة الحريم، بيئة خصبة وديمومة لخيالات الرحالة المستشرقين مثل تاورنية وفرابر ومينورسكي وغيوم أنطوان أوليفيه G-Antoine Olivier وغيرهم. وتعرّضت المرأة الصفوية لإجحاف كبير تجلّى في اتهامها بالمسؤولية عن انحطاط الأسرة الصفوية وانهيارها في نهاية الأمر، متغاضين عن الدور الحضاري والفكري والسياسي والاجتماعي الذي قامت به، وسعيها الحثيث للمحافظة على المملكة التي ورثتها، حالها حال الرجال.

81 أكرم أوج، "موقوفات زنان در دوره صفوی وعثماني" ("أوقاف النساء في العهدين الصفوي والعثماني")، فصلنامه تاريخ روابط خارجي، العددان 52 و53 (1391ش)، ص 4-5.

إن مسيرة المرأة ومشاركتها السياسية لا بد من عرضها بكل ما فيها من نجاحات وإخفاقات، من دون التركيز على الجانب المظلم والتنصل من الجوانب المشرقة. فصعود عدد من الحكام ضعاف الشخصية وغير المؤهلين لإدارة شؤون البلاد، نتيجة قواعد واهية وتضافر عوامل تمخّضت عنها ظرفية حكمت بحبس الأمراء في منطقة الحرير، لا يبرر هيمنة آراء تقليدية تستخدم المفارقات التاريخية وتستحضر الدين ذريعة في محاولة لإثبات عدم صلاحية حكم المرأة والخروج بتعميمات تجعلها عاملاً رئيساً في انهيار الدول. قد لا ينطبق ذلك على جلّ الحالات، حيث برزت نماذج مضيئة وقوية تفوّقت على الحكام الضعاف وتمكّنت من إدارة أمور العباد بذكاء وفطنة، لكن مآلها كان القتل بطريقة عنيفة أو النفي أو النسيان في إثر حدوث التغييرات في مناخ السياسات في البلاط الإمبراطوري. ويدعونا ذلك كله إلى إعادة النظر وتحريير فكرنا من تلك القوالب التقليدية.

وفي ضوء ما ذكر، قد تشكل الدراسة تحدياً يؤدي إلى المزيد من البحث والتقصي في أعماق المصادر لاستنتاجها، إما لتأكيد وإما لنفي تلك المفارقة الجوهرية والصورة النمطية لحكم النساء أو تغييرها، وفتح نافذة جديدة على رؤية مغايرة تُبين أيضاً دورهن في المحافظة على بنية الدولة ومؤسساتها ومساهمتهن في استمرارية الإمبراطورية.



المراجع

العربية

- ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله. **زبدة الحلب من تاريخ حلب**. عُني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه سامي الدهان. ج 3. دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، 1968.
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم. **مُفَرَّج الكروب في أخبار بني أيوب**. تحقيق جمال الدين الشيثال وحسين ربيع. مراجعة سعيد عاشور. ج 5. القاهرة: مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية، 1957.
- ألبجونج، جان. **السلطانان خرم ومهرماه قرينة القانوني وسليته**. ترجمة وليد عبد الله القط. القاهرة: دار النيل، 2014.
- براون، إدوارد جرانفيل. **تاريخ الأدب في إيران من بداية الحكم الصفوي حتى نهاية الحكم القاجاري**. ترجمة أحمد كمال الدين حلمي وإبراهيم أمين الشواربي ومحمد علاء الدين منصور. ج 4. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005.
- بن نوار، بهاء. "الرحلات الاستشراقية وصورة الذات العربية: قراءة في صورة الحريم". مجلة **رؤى فكرية**. العدد 2 (2015). في: <https://bit.ly/39ddQYP>
- الجواهري، عماد. "الحريم السلطاني ودوره في الحياة العامة من تاريخ الدولة العثمانية". مجلة **العلوم الاجتماعية**. مج 7، العدد 2 (1979). في: <https://bit.ly/2L9oVO8>
- حسن، سواف. **دور الجواري والقهرمانات في دار الخلافة العباسية، 132-656هـ / 749-1258م**. دمشق: صفحات للدراسات والنشر، 2013.
- شرف، مصطفى. "دور نساء البلاط الصفوي في تاريخ الدولة الصفوية"، مجلة **رسالة المشرق**. مج 27. عدد خاص (2011). في: <https://bit.ly/2uhVdjv>
- طقوش، محمد سهيل. **تاريخ الدولة الصفوية (في إيران)، 907-1148هـ / 1501-1736م**. بيروت: دار النفائس، 2009.
- عثمان، عمرو. "التاريخ العالمي: موضوعه ومناهجه ودراسته من خلال تاريخ الأشياء". **أسطور**. العدد 1 (كانون الثاني/يناير 2015).
- علاوي، نسيبة. "دور آل كوبرلو في إصلاح أوضاع الدولة العثمانية، 1656-1702م". مجلة **أبحاث كلية التربية الأساسية**. مج 6، العدد 2 (2007). في: <https://bit.ly/2Syxubx>
- مخلوف، ماجدة. **الحريم في القصر العثماني**. القاهرة: دار الآفاق العربية، 1998.
- المريني، فاطمة. **السلطانات المنسيات نساء رئيسات دولة في الإسلام**. ترجمة جميل معلى وعبد الهادي عباس. دمشق، دار الحصاد للنشر والتوزيع، [د.ت.].
- هامبلي، غافن (محرر). **المرأة في العصور الوسطى الإسلامية**. ترجمة أحلام عثمان [وآخرون]. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2014.

الفارسية

- آزاد، حسن. گوشه های از تاریخ اجتماعی ایران: پشت پرده های حرمسرا (زوايا من التاريخ الاجتماعي لإيران: خفايا الحريم). أرومية: انتشارات انزلی، 1357ش.
- أرجح، أكرم. "موقوفات زنان در دوره صفوی و عثمانی" ("أوقاف النساء في العهدین الصفوی و العثماني"). فصلنامه تاریخ روابط خارجی. العددان 52 و 53 (1391ش).
- باربارو، جوزافا. سفرنامه های ونیزیان در ایران (رحلات البنادقة في إيران). ترجمة منوچهر امیری. طهران: شرکت سهامی انتشارات خوارزمی، 1381ش.
- تاورنیه، ژان باتیست. سفرنامهء تاورنیه (رحلات تافرنیه). ترجمة حمید شیرانی. [د. م.]: انتشارات نیلوفر، 1383ش.
- دانش، فاطمة. "خانم بیگم، بانوی شیعه در یزد (پیوند از تصوف تا سلطنت)" ("خانم بیگم، سیده شیعیة في یزد (اتحاد من الصوفیة إلى الملكية)"). راسخون. 2018/9/30. في: <https://bit.ly/3dpfR5F>
- دلاواله، پیتر. سفرنامه پیتر دلاواله: قسمت مربوط به ایران (رحلات پیتر دیلافالی: القسم المتعلق بإيران). ترجمة شعاع الدین شفا. طهران: شرکت انتشارات علمی و فرهنگی، 1370ش.
- روملو، حسن بیک. أحسن التواریخ (أحسن التواریخ). عبد الحسین نوائی (محقق). طهران: انتشارات بابلک، 1357ش.
- سانسون، مارتن. سفرنامه سانسون (رحلات سانسون). ترجمة نقی تفضلی. طهران: کتابفروشی ابن سینا، 1346ش.
- شایسته فر، مهناز و محمد خزایی و شهین عبد الکریمی. "بررسی جایگاه اجتماعی زنان و کودکان در دوره شاه طهماسب صفوی (930-983ق) بر اساس تطبیق نگاره های نسخ شاهنامه طهماسبی و هفت اورنگ جامی" ("دراسة الحالة الاجتماعية للمرأة والطفل في عهد الشاه طهماسب الصفوي (930-983هـ) بناء على تطبیق نسخ من صور شاهنامه طهماسب والهفت أورنگ جامی"). زن در فرهنگ و هنر. المجلد 6. العدد 2 (1393ش). في: <https://bit.ly/39y5NWm>
- شکری، ید الله (محرر). عالم آرای صفوی (تاریخ عالم آرای الصفوی). طهران: انتشارات بنیاد فرهاد، 1363ش.
- شیفالییر، شاردن. سیاحتنامه شاردن سازمان نظامی و سیاسی ومدنی ایران (رحلات شاردن المجتمع المدني والسياسي في إيران). ترجمة محمد عباسی. ج 8. طهران: مؤسسة چاپ و انتشارات امیر کبیر، 1966.
- فلسفی، نصر الله. زندگانی شاه عباس اول خصوصیات جسمی، روحی، أخلاقی و ذوقی أو (حياة الشاه عباس الأول خصائمه الخلقية و الخلقية و الروحية و المعنوية). ج 2. ط 4. طهران: انتشارات دانشگاه تهران، 1347ش.
- فیگوتروا، دن گارسیا. سفرنامه دن گارسیا فیگوتروا (رحلات داسیلفو فیگوتروا). ترجمة غلامرضا سمعی. طهران: نشرنو، 1363ش.
- کمپفر، انگلبرت. سفرنامهء کمپفر (رحلات کمپفر). ترجمة کیکاووس جهانداری. ط 3. طهران: شرکت سهامی انتشارات خوارزمی، 1363ش.

- كارري، جملي وجوواني فرانسكو. *سفرنامه كارري (رحلات كارري)*. ترجمة عباس نخجواني وعبد العلي. تبريز: اداره كل فرهنگ وهنر آذربايجان شرقي، 1348ش.
- گلي زواره، غلامرضا. "زنان وزمامداران صفوي" ("النساء والحكام الصفويين")، *ماهنامه پیام زن*. مج 161، العدد 5 (1384ش).
في: <https://bit.ly/2t78YE2>
- نوائي، عبد الحسين. *منابع تاريخي وجغرافياي إيراني 36*، شاه طهماسب صفوي: مجموعة اسناد ومكاتبات تاريخي همراه با يادداشتهاي تفصيلي (المصادر التاريخية والجغرافية لإيران 36، الشاه طهماسب الصفوي: مجموعة من الوثائق والرسائل التاريخية مع مذكرات تفصيلية). طهران: انتشارات بنياد فرهنگ، 1350ش.

الأجنبية

- Al Azhari, Taef. "Dayfa Khatun, Ayyubid Queen of Aleppo 634-640 A.H./ 1236-1242 A.D." *JAMES Annals of Japan*. no. 15 (2000). at: <https://bit.ly/37uhA6A>
- Birjandifar, Nazak. "Royal Women and Political in Safavid Iran." Master Thesis. McGill University, Montreal, 2015. at: <https://goo.gl/AAULZ3>
- *Encyclopaedia Iranica*. at: <https://bit.ly/2Cg6HL7>
- Ferrier, Ronald W. "History of Iran: Women in the Safavid Era." *Iran Chamber Society*. at: <https://goo.gl/JkBGYR>
- Fryer, John. *A New Account of East India and Persia Nine Years' Travels, 1672-1681*. William Crook (ed.). London: Hakluyt Society, 1915.
- Gholsorkhi, Shohreh. "Pari Khan Khanum: A Masterful Safavid Princess." *International Society of Iranian Studies*. vol. 28, no. 3-4 (995). at: <https://bit.ly/2QxFszo>
- Jahandideh, Mitra & Shahab Khaefi. "Women's Status during the Safavid Period." Paper presented at the International Conference on Social Science, Social Economy and Digital Conference "Recent Researches in Social Science, Digital Convergence, Manufacturing and Tourism," Spain, May 27-29, 2011. at: <https://goo.gl/4hU7Ao>
- Mitchell, Colin. *The Practice of Politics in Safavid Iran: Power, Religion and Rhetoric*. London/ New York: Tauris Academic Studies, 2009.
- Mottaghi, Somayyeh. "The Historical Relationship between Women's Education and Women's Activism in Iran." *Asian Women*. vol. 31, no. 1 (2015). at: <https://goo.gl/SviUCE>
- Newman, Andre. *Safavid Iran Rebirth of Persian Empire*. New York: I.B. Tauris & Co Ltd., 2012.
- Peirce, Leslie. *The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire*. New York: Oxford University Press, 1993.
- Rizvi, Kishwar. *The Safavid Dynastic Shrine: Architecture, Religion and Power in Early Modern Iran*. London: British Institute of Persian Studies, 2011.
- Ross, E. & Eileen Power. *Don Juan of Persia ASHi'ah Catholic, 1560-1604*. G. La Strange (trans.). New York/ London: Harper & Brothers, 1568.

- Ruggles, Fairchild (ed.). *Women, Patronage, and Self-Representation in Islamic Societies*. New York: State University of New York Press, 2000.
- *Tadhkirat Al-Muluk: A Manual of Safavid Administration*. Vladimir Minorsky (translated and explained). EJW Gibb Memorial Series 16. London: Luzac and CO., 1943.
- Yermolenko, Galina. "Roxolana: The Greatest Emperess of the East." *The Muslim World*. vol. 95, no. 2 (2005). at: <https://bit.ly/2ti9qiJ>